السباعي على طريق المعرفة والحق (*)

ما كنت أحسب أن صوت النعي يقرع سمعي وقلبي، فأجلس جلستي هذه لأتناول القلم وأكتب عن الرجل العظيم مصطفى السباعي.

أجل.. ولم يكن يدور بخلدي أن يد المنون ستمتد إليه بهذه اللمحة الخاطفة فينطفئ نور الحياة، وتذبل الزهرة، ويصوح النبت الجميل.

صحيح أن أبا حسان كان يعاني من مرضه العُضَال خلال سبع سنين أو تزيد، ولكن إيمانه المتوقِّد، وأمله العريض، ـ بفضل الله عز وجل ـ كانا يشعرانك أن الرجل على طريق الأصحّاء، وفي خطٍ متميّزٍ من صفوف الهانئين.

وما كان لي أن أزعم لنفسي أن حق أبي حسان يُقضى بكلمات أو سطور، فكفاء حقه كثير وكثير، ولقد أصبح هذا الأمر ملْك الأمة، الأمةً التي لا تجًد كل يوم أبناءها، وليس في مقدورها ـ وقد ضربت عليها الأيام بالأسداد ـ أن تأتي بالمثيل لـمَنْ تفقد من رجالها وعلمائها.

وإذا كان وفاء حق أبي حسان ملك الأمة فإن كلمة نقولها اليوم لن تكون إلا رمزاً لحرصنا الصادق أن تسلك مشاعرنا طريق الوفاء.

والحديث عن أبي حسان ذو شجون، ولقد يكون من الخير أن أمسَّ ولو مسَّاً رفيقاً الجانب العلمي من شخصيته العظيمة التي تعددت ملامحها وتنوعت ميادين جهادها.

(*) حضارة الإسلام: الأعداد (الرابع، الخامس، السادس) السنة الخامسة، جمادى الآخرة ورجب وشعبان ١٣٨٤هـ، تشرين الأول والثاني وكانون الأول ١٩٦٤م. (العدد الخاص).

وإذا كنت أسمح لنفسي أن أدير الكلام على هذا اللون من الحديث، فلأني أعتقد أن في ذلك مرضاة له وهو في مثواه الأخير ـ رحمه الله ـ، فَلَكَم كان حريصاً على أن تُنْشَر على الناس سيَرُ أولئك الأعلام من سلفنا الصالح[1].

ولقد كان ـ رحمه الله ـ القائد العالم، والداعية المجاهد. وإن الحديث عن الجانب العلمي في شخص هذا الرجل الفذِّ لا يعني استيفاء ما يمكن أن يُقال، ولكن يعني الإشارة العابرة والدلالة على الطريق.

فلقد كانت ملامح العبقرية تلتمع على محيَّاه منذ حداثة سنِّه ونعومة أظفاره، يشهد بذلك الأحياء من الأساتذة في حمص، حيث أتم دراسته الابتدائية والثانوية، وحظيَ بحلقات الكثيرين من العلماء.

وفي مصر كانت دراسته العالية، فقد انتسب إلى كلية الشريعة، وأشهد أن أساتذته كانوا يرون فيه أمانة العالم، وإخلاص المجاهد، وملامح البطل. ولقد سمعت من العلامة المرحوم شيخه الشيخ «عيسى منون» ـ عميد كلية الشريعة في الأزهر، وشيخ رواق الشوام آنذاك ـ خير ما يقال عن شاب تتوافر له كل مواهب المجاهدين من العلماء الذين يقوون على حمل الأمانة، ويتقدمون الركب غير عابئين ولا هائبين، ويشهد الكثيرون أن هذا الإنسان الكبير كان يتحدث عن السباعي حديث الواثق المطمئن، فولده مصطفى جدير أن تفخر به ميادين العلم والمعرفة، وأن تعتز بمواهبه وإخلاصه ساحات العمل والجهاد.

(١) كان رحمه الله حريصاً ـ كما علمت منه قبل وفاته بيوم واحد ـ على كتابة مؤلفات ثلاثة، هي: العلماء الأولياء، والعلماء المجاهدون، والعلماء الشهداء، وكان يحضني على ذلك من قبل.

أما زملاؤه: فسلوا عن شهادتهم به، وحسن ظنهم فيه. أخاه فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ «محمد الحامد» الذي لا يفتأ يتحدث حديث القلب والعاطفة والمشاعر عن أيامه مع الشيخ مصطفى في الأزهر، حيث العلم والمعرفة والتفتُّح المُبْكر والإخلاص لله عز وجل. وأذكر أني التقيت بأحد أولئك الزملاء في القاهرة ـ وهو اليوم أستاذ في إحدى جامعاتها ـ فسألني بلهفة وحسرة وشوق: أصحيح أن مصطفى مريض؟! لقد كانت صيغة السؤال، ونبرات السؤال، وكل حرف من هذه الكلمات توحي بما وراءها من حبٍّ صادقٍ، وإعجابٍ كبيرٍ بالمسؤول عنه، الذي أقعده المرض فكان الأسد الجريح...

وحاولت أن أتلطف بالجواب، ولكن الرجل الذي كان يستمع إلى إحساسه بالنكبة قبل أن يستمع إليَّ بدأ يردد على مسامعي: «وأخيراً وقع مصطفى..» وانطلق داعياً له بالعافية والشفاء، ذاكراً أيامه معه وما كان يرجوه به من تلطفٍ في الحماس وتأنٍ في مراحل الكفاح.. وبصوت متهدج خَافت اختتم كلامه بقوله: «كان الشباب يلهون ويلعبون ومصطفى يسابق الزمن في علمه معرفته، ويحمل هموم العالم الإسلامي والمسلمين على كتفيه».

أما عن الآثار العلمية التي خلَّفها الأستاذ السباعي وأكثرها كُتِبَ أيام مرضه: فهي جديرة أن تتحدث عن نفسها، وتعطي الصورة الصادقة عن العالِم مصطفى السباعي.

وإذا كان رحمه الله قد ضرب ـ وهو الأستاذ في الجامعة ـ بسهم وافر في أكثر الميادين؛ فألَّف في الفقه والقانون، وكتب عن حضارة الإسلام، وتقدَّم الباحثين في العدالة الاجتماعية بطريقة علمية، لقد كان في مقدمة تصانيفه كتابه (السُّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي)، ولقد وُلِدَ هذا الكتاب رسالة لنيل شهادة تخصص المادة من جامعة الأزهر (الدكتوراه)، ثم شغلته ـ رحمه الله ـ ميادين الجهاد والتوجيه عن طبع الكتاب وتقديمه للقراء، حتى طبع الطبعة الأولى في القاهرة بعد تنقيح يسير في أوقات اختلسها من فترات الراحة وهو في ذروة الألم والعناء.

والحقيقة التي لا مرية فيها أن هذا الموضوع لم يكن عملاً عادياً بالنسبة لأبي حسان؛ بل كان صورة تعبِّر عما وراءها من رغبة صادقة مبكرة في الدفاع عن السُّنة المطهرة، وردِّ عاديات المعتدين عليها، وإسكات الألسنة الغافلة أو المأجورة التي تتناول رواتها من أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم، وتعدو على الحقيقة في حكمها على سلف هذه الأمة وعلماء الحديث الأولين.

فإلى جانب البحوث المستفيضة الواعية التي لا غنى عنها لباحث يدرس السُّنَّة باعتبارها مصدراً من مصادر التشريع، نرى أن أبرز ما في الكتاب هذه الحرارة المتوقِّدة المنبعثة من لهيب المعركة، معركة الذود عن حياض هذا الأصل من أصول الشريعة؛ فلقد عرض ـ رحمه الله ـ بأمانة علمية متناهية لمواقف الأقدمين من السُّنَّة، ثم جاء على ذكر المستشرقين ومَنْ يدور في

فلكهم ويصلي في محرابهم. وإذا كان قد رسم الخطوط العريضة والملامح العامة عند تأليف الكتاب: فلقد استطاع بعد بحث دائب وطول تجربة واتصال شخصي بالكثير من المستشرقين أن يفصل القول في هذا الأمر الخطير، ويوضح جوانب المعركة التي تخوضها هذه الفئة ضد الفكر الإسلامي، والأسس التي تقوم عليها مناهجهم الرهيبة ومخططاتهم الآثمة، وقدَّم العلاج الناجع الذي به يمكن أن تعود الأمة إلى قيادة الركب من جديد، وخصوصاً في ميادين الثقافة والفكر.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، فقد تناول بالبحث الواضح والرد العلمي الدقيق كتاباً حديثاً لبعض المؤلفين، قوامُه التشكيك بالسُّنة، والطعن بمنهج علمائها في النقد، وتجريح صحابي جليل من كبار محدثي الصحابة وهو أبو هريرة - رضوان الله عليه - تجريحاً تَقْصر دونه سموم «جولد تسيهر» المستشرق اليهودي. ناهيك عن حواره العلمي الرصين مع صاحب «فجر الإسلام، وضحى الإسلام» وتعرية ما كان من تلمذته لجولد تسيهر!

ولقد كان مصطفى السباعي في ذلك كله مثال العالم المخلص الأمين الذي أيقظ قلبَهُ صوتُ النذير، وحرَّك كوامنَهُ إحساسٌ عميقٌ بالنكبة، فانطلق يكافح هنا وهناك.

رحمك الله يا أبا حسان، لقد كانت رحلة طويلة وشاقة تلك الرحلة التي سلكت سبيلها إلى الله. كانت أياماً صعبة تلك الأيام التي صبرت لها وصابرت. وكانت ليالي سوداً تلك الليالي التي قارعت فيها أعداء الحق

والإسلام، فلا والله ما ألقيت السيف حتى استله منك المرض، ولا خلعت درع النضال حتى مزَّقه جفاف الشرايين، ولكنك ـ والله يشهد ـ لم تتخذ عن الجهاد بديلاً؛ ففي القلب المؤمن العامر بالأمل والإيمان، مُتَّسعٌ لإلقاء بذور الجهاد في كل أرض طيبة، وفي القلم الحُرِ الكريم الذي يرسم مداده الأسود خطوط النور، ومعالم الطريق: سلاحٌ وأي سلاح.

ولقد كان ذلك وكان أكثر منه وأوفر، حتى وافتك المنية صابراً محتسباً مجاهداً وأنت تحرر كتاب السنة لتقدمه للطبع من جديد.

وأخيراً إذا كان العلماء المجاهدون معالم في طريق هذه الأمة تهتدي بهم في ظلمات الحياة، وتستنير بإرشادهم في متاهات الزمن، فإن فقيدنا العظيم يُعْتبر بحق واحداً من أولئك الذين أدّوا حق الله في علمهم، وقدَّموا لأمتهم أثمن ما يمكن أن يُقَدَّم.. فنعْم التقديم. وأعطوها على دروب المعرفة والكفاح أعزَّ ما يُعَطى.. فنِعْم العطاء.

واقعٌ وذكرى [1]

يأخذ هذا العدد من حضارة الإسلام طريقه إلى القارئ الكريم، وحديث الساعة في العالم ما كان من الصراع الدامي بين باكستان والهند حول (كشمير)، وما آل إليه الأمر من وقف إطلاق النار، وارتقاب الناس جميعاً لما سيكون بعد تنفيذ قرار مجلس الأمن. . . كل ذلك على وميض نار تطلُّ من خلل الرماد، وتربُّص ماثل، وحذر شديد.

ولو أنَّا تجاوزنا حدود العقيدة التي تربطنا بكشمير، وأغضينا عن كل شيء يصلنا بها، نرى أن كثيراً من الحقائق تبرز في حلبة الصراع لا يمكن لمنصفٍ أن يتجاهلها، أو يغضي عنها.

إنه لم يكفِ باكستان أن أكثر دول العالم جانبت طريق الصواب، فكانت تبعث نداءاتها بوقف إطلاق النار، دون نظر للمعتدي الذي تسبب في إطلاق النار، ودون تساؤل عن الحقوق المسلوبة، والحريات المغتصبة، التي نشأ عنها الصدام وكانت الحرب.

لم يكفِ باكستان ذلك كله حتى اتفق الشرق والغرب في مجلس الأمن على لزوم وقف القتال، مع أن مجلس الأمن يعلم حق العلم، ويذكر ولا ينسى، أنه قرر بتاريخ ٢١ نيسان ١٩٤٨ حق تقرير المصير لشعب (كشمير)

(١) مجلة حضارة الإسلام: العددان: الثالث والرابع، السنة السادسة، جمادى الأولى والآخرة ١٣٨٥هـ، أيلول وتشرين الأول ١٩٦٥م.

وإجراء استفتاء نزيه بعيد عن الضغط والتأثير، يكون طريقاً لتأمين هذا الحق.

إن مجلس الأمن يعلم ذلك كله، ويعلم معه أن الهند قد وعدت بتنفيذ قراره ذاك، ولكنها لم تف بوعدها خلال هذه السنين الطوال... حتى لم يبقَ في القوس منزع، وقامَت قيامة الحرب، وصرَّح وزير هندي مسؤول: بأنه لن يتردد في حرق جميع المدن الواقعة بين دلهي ومدراس، شريطة أن تحترق باكستان أيضاً.

وليس من المجهول لأحد أن أكثرية السكان الساحقة في (كشمير) تدين بالإسلام، فالمفروض إذا أرادت أن تنضم لإحدى الدولتين: أن يكون الانضمام لباكستان، ومع ذلك تصرُّ الهند ـ زاعمة السلام ـ على أن (كشمير) جزء من أراضيها، وتريد أن تغتصبها دون مراعاة لكرامة الإنسان، أو لما يسمونه حقوق الإنسان، تماماً كالذي يقال عن حقوقنا في (فلسطين). ولكن لعل عذر الهند في ذلك ضيق أرضها وقلة عدد السكان!!!

ألا وإن مجلس الأمن يعلم أيضاً أن بعض الدول التي شاركت في قرار وقف القتال، تقيم حروباً طاحنة لا تُبْقي ولا تَذَر من أجل أية مصلحة من مصالحها، ولو أدى ذلك إلى أبادة شعوب بأكملها، وتدمير بلاد شاسعة آهلة بالسكان والخير... وهذه هي نفسها توجب الظلم الآن باسم السلام دون تأديب المعتدي، ودون رسم طريق واضحة تضع الأمور في نصابها، وترد الحقوق إلى أصحابها، وفي منطق التجربة.. أي غرابة في ذلك؟ إنك لا تجني من الشوك العنب!

وإذا كان شعارنا نحن المسلمين: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فإن ذلك لا يعني أبداً، رضانا بإهدار حقوق الشعوب المسلمة. وأي حق أوضح من حق (كشمير) في تقرير المصير.

أبصر معي.. قبل سبعة عشر عاماً أو تزيد، اتفقت الكتلتان على تقسيم أرضنا (فلسطين)، وكان من البلاء ما كان. واليوم تلتقيان على الوقوف ضد باكستان بجانب الهند المعتدية والتي تقيم عملياً علاقات قنصلية مع إسرائيل.. أليس لذلك من مدلول؟!

والآن.. ماذا عليَّ إذا سرت خطوة أخرى لأذكر مع القرار مؤسس هذه المجلة الأستاذ المجاهد الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ. لقد مضى على وفاة الفقيد عام كامل، مضى بساعاته وأيامه وشهوره... مضى وكأنه طرفة عين أو سنحة خاطر، وسبحان من وسعت قدرته الزمن، وجلَّ الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وأراني أخط حديث الذكرى، والوحشة تملك عليَّ منافذ القول، وأكاد أشعر أنني في كهف غائرة بعيدة عن دنيا الناس، ولكأني بالحادث الجلل غضاً طرياً ينزل الآن بكل أثقاله وملامحه. ولعل مردَّ ذلك أن نكبة الأمة بفقدان الرجال أوسع من أن تحصي أبعادها أيام أو شهور، ولكن هذه الأبعاد رهن الزمن الطويل والأحداث المتلاحقة التي تنزل بمطارقها السود، فكلما حزب الأمر واشتد الكرب: ذكرنا المجاهد البطل، وكلما استبدت الدنيا وذرت بقرنيها الجهالة: ذكرنا العالم الزاهد، وكلما عصف البلاء وثارت ريح الفتنة: ذكرنا الصابر الراضي المحتسب.

واليوم ونحن نعيش أحداث (كشمير) وغيرها مما ينزل بأجزاء كثيرة من وطننا الكبير، نذكر مصطفى السباعي نذكر يوم كانت تقيمه الأحداث وتقعده حتى أنك لتشهد في تصرفاته قول شاعرنا العربي:

((والجود بالنفس أقصى غاية الجود))

والشوق إلى لقاء الله في لهيب المعركة أجمل ما يَزينُ المؤمن الصادق الذي يسمو به إلى الغاية قول الرسول الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: [**ما من مكلوم يُكْلَم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعَب دماً، اللون لون الدم، والريح ريح المسك**].

وتمضي بنا الذكرى لنرى السباعي يتحدث مرة ـ والدمع يتدافع في محياه ـ عن نكبة من نكبات المسلمين في هذا العصر، فيقول والوهج في أعصابه وعلى ملامحه مؤكداً قوله بالقسم: «ما أكاد أحمل طفلتي الصغيرة لأقبلها مرة من المرات إلا ذكرت أطفالاً لإخواننا فقدوا آباءهم أو أنهم في الطريق لفقدانهم.. فأَدَعُ طفلتي وقد شرقت بدمعي وأمضي لشأني..».

لقد كان ـ طيب الله ثراه ـ واحداً من أولئك الذين يرون في كل شبر من الوطن الكبير قطعة من أنفسهم، وفي كل طفل من أطفال المسلمين واحداً من فلذات أكبادهم.. ذلك هو المنطلق، الأرض هي ـ على البعد ـ أرضنا، والمصاب هو ـ على تنائي الديار ـ مصابنا.

فما كان لنا أن نلهو والألوف من إخواننا وأخواتنا نهارهم أسًى وليلهم عذاب، وما كان لنا أن نضحك والملايين يملأ دنياها العويل.

وهل يستوي في ميزان الرجولة: سواعد تعبث بالدمى، وسواعد تمسك بالمدافع؟! أم هل يستوي في قانون الكرامة والبقاء: نساء يرقصن على ألحان المجون، ونساء تتعالى أصواتهن أمام المجاهدين بالتكبير، ويزغردن للشهداء تحت لعلعة الرصاص؟!

لله ما أشد احتياجنا اليوم إلى الإيمان وخلائق الرجال... رحم الله أبا حسان، وكتب له في دار كرامته ثواب المتقين الأبرار.

obeikandl.com

الأستاذ المربي الداعية محمد خير الجلاد (*)

قضى الله أن يحمل إلينا النعي نبأ وفاة الأستاذ محمد خير الجلاد في الوقت الذي كنا ننتظر منه أن يكتب في ذكرى وفاة الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمهما الله ـ.

ولقد علَّمنا إيماننا أن نرضى بالقضاء، وأن نحمد الله الذي خلق الموت والحياة على كل حال. فله الحمد سبحانه على ما أخذ، وله الحمد على ما أعطى، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وإذا كان الناس يوزنون عند الله بمقدار ما عملوا من الخير وقدموا من المكرمات، فإن الأستاذ محمد خير الجلاد ـ رحمه الله تعالى وغفر له ـ غبر حياته ـ فيما نعلم ـ داعيةً موفقاً إلى الله ومدرساً للتربية الدينية في ثانويات دمشق، فمنذ ربع قرن تقريباً تولى تدريس هذه المادة، وكان فيها مثال المدرس الواعي لمادته، الفاهم لرسالته، المدرك للأهداف التي من أجلها كانت المعرفة. وأشهد كما يشهد أكثر من عرفوه أنه أسهم في بناء جيل مؤمن يتمتع ـ مع الوعي ـ بحرقة صادقة على دين أمته وتاريخها ولغتها، ويتطلع إلى المستقبل بعزم وإيمان.

ولعل لهناءة نفس الفقيد، وما كان يزينه من إيمان صادق، وسعة صدر، وأسلوب فطري أخَّاذ في التربية، أثراً جعل منه ذلك الداعية القدوة والأستاذ المربي الناجح، الذي كان له من طلابه وإخوانه أكبر قدر من المحبة والاحترام.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العددان: الثالث والرابع، السنة السادسة، جمادى الأولى والآخرة ١٣٨٥هـ.

ومن الخير أن نقرر أن الأستاذ الجلاد لم يقتصر على التدريس في المدارس، بل كانت له حلقات من التوجيه والتعليم، ولقاءات يجتمع خلالها إلى العديد من الشباب الذين تهفو نفوسهم إلى الخير والمعرفة والحق، فيزودهم بالكثير من تجاربه الغنية، وتوجيهاته الصادقة.

وكان هؤلاء وأولئك يرون في تواضعه وكراهيته للظهور ونفرته من بهرج العناوين والأضواء مثالاً يحتذى وقدوة تُتَّبع. ولقد عرفت الأستاذ الجلاد في سنة ١٩٤٤ حين كان ناظراً في الكلية الشرعية (الثانوية الشرعية اليوم) وكنت إذ ذاك طالباً من طلاب السنة الرابعة فيها، ولقد ترك في نفسي آثاراً طيبة أرجو أن أذكرها ما حييت.

ولست أنسى أبداً آخر لقاء معه حين غمر الجالسين بفكاهته ودعابته على ما كان يعاني من آثار مرض أقعده الفراش مدة طويلة من الزمن.

ولقد دعوته حينذاك أن يكتب لقراء (حضارة الإسلام) عن الفقيد الأستاذ مصطفى السباعي، ووافق مستعيناً بالله عز وجل، وشرط أن نذكره لئلا ينسى.. نعم لقد كان ذلك.. وسارت الأيام وأردت أن أذَكِّر أبا هشام بالمقال، وإذا بالقدر يقول كلمته، فتفيض نفس إلى بارئها، وتنطفئ شعلة طالما أضاءت الطريق.

وبدلاً من أن يكتب محمد خير الجلاد عن السباعي: أراني والأسى يملأ نفسي، أكتب هذه الكلمات الوجيزة المتواضعة عن الأخ الأكبر الغالي..

فلله الحمد أولاً وآخراً. وإناَّ لله وإناَّ إليه راجعون، سُنَّة الله ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً.

الأستاذ الجلاد في سطور

هو محمد خير بن عبدالقادر عزت الجلاد، ولد عام ١٩١٢م.

منح شهادة الأزهر العالمية مع الإجازة في القضاء الشرعي في ٦ شعبان سنة ١٣٦٣هـ (٢٦ يوليه) ١٩٤٤.

منح شهادة الأزهر شهادة الأهلية للغرباء بتاريخ ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٥٦ هجرية. ومنح الشهادة العالية لكلية الشريعة في جامع الأزهر في المحرم ١٣٦٢ هجرية يناير سنة ١٩٤٣م.

بدأ حياته في التدريس سنة ١٩٤٤م في الكلية الشرعية.

أسهم بتأسيس المعهد العربي الإسلامي والتدريس فيه. كما أسهم في مدارس تعليم الأميين التي أقامتها جمعية الشبان المسلمين في دمشق.

كان يقوم بجولات خلال العطل الصيفية للوعظ والإرشاد في قرى لبنان واللاذقية، وكان عضواً مؤسِّساً في أول جمعية تعاونية لبناء المساكن، والتي تأسست في سورية عام ١٩٤٩، وقد بقي رئيسها لهذا العام، أي لآخر حياته.

شِرْعَةُ الحكيم الخبير[1]

في حلقة من حلقات التكامل في نظام الإسلام نرى العيد يأتي في مكانه الطبيعي في شرعتنا العظيمة، التي هي شرعة الحكيم الخبير، العليم بما يصلح شأن عباده، الخبير بظواهرهم وخفاياهم وما به سعادتهم في الدنيا ويوم الدين.

عيدان لهذه الأمة جاء بهما هذا الدين، وهما: عيد الفطر وعيد الأضحى، وغنيٌّ عن البيان أن كلا العيدين يأتي بعد عبادة من العبادات العظيمة في الإسلام، فكل منهما يأتي بعد ركن من الأركان الخمسة، التي هي قوام الدين الذي ارتضاه الله لهذه الأمة، فأتم به النعمة، وأكمل به صنوف الرضا والإحسان.

هذا عيد الفطر يأتي بعد صوم رمضان، حيث التقوى، وصلة المخلوق بالخالق، والاستعلاء على الشهوات والنزوات، صيامَ نهار وقيامَ ليل، يعين على ذلك صلة بالقرآن الكريم الذي كان بدء نزوله في ليلة من لياليه الفاضلات المباركات، ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر.

ويأتي عيد الأضحى في جو غامر بالخير، من إقامة فريضة الحج والتقرُّب إلى الله بالعجِّ والثجِّ، وتركيز أعلام الوحدانية للخالق القهار ذي الجبروت الذي لا رب غيره، ولا خير إلا خيره. كل ذلك هناك حول بيته، وفي

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد السابع والثامن، السنة التاسعة، رمضان ١٣٨٨هـ.

الأرض التي كانت مهبط الوحي، ومنبت دعوة الإسلام، ومرابع الحنيفية السمحة التي جاء بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

وإنك واجد مع كلٍّ من عيد الفطر وعيد الأضحى نوعاً من العبادة المالية؛ فمع عيد الفطر صدقة الفطر التي لا تُرفَع عبادة الصيام إلى ساحة القبول إلا بأدائها كاملة غير منقوصة.

ومع عيد الأضحى شرْعَةُ الأضحية، التي جعلها كثير من علماء الإسلام في حيِّز الوجوب، والتي يطلب التصدق منها على الفقراء، بجانب كونها خطوة على الطريق التي تُذكِّر بما كان من إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ، حين اقتحم كلٌّ منهما العقبة، وفاز برضوان الله، مستعلياً على كل العوائق ومغريات الأرض التي تشدُّ العبد إلى الطين والتراب. فإبراهيم ـ عليه السلام ـ ينتصر على نوازع العاطفة ـ وهو الأب الشفيق ـ ويقدِّم بكل صدق وطمأنينة ولدَه للذبح، وإسماعيل ينتصر كذلك على كل نوازع الغريزة في حبِّ الحياة والبقاء، ويمتثل بكل صدق وطمأنينة، راضياً بأمر الله، ويطلع على الإنسانية بذلك الشعار النوراني العظيم: ﴿**يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ وكان ما كان.. ورضي الله عن إبراهيم وإسماعيل، وفدا الذبيح بفداء من عنده سبحانه: ﴿**فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**﴾.

وهي مرتبة لا ينالها إلا أهل الإحسان ﴿**كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

ولا ننسى هاجر العظيمة أم إسماعيل التي كانت نعم العون لزوجها وولدها في صدق الأمتثال لأمر الله.

في ضوء هذه الإشارة العابرة، يستبين لنا بوضوح، أن شرعة العيد في أعقاب العبادة، دليل أن فرحة المؤمن إنما تكون بفضل الله عز وجل، وفيما وفق للطاعة، وفيما يسَّر من ذكره تبارك وتعالى في إقامة شعائره، إمساكاً عن الشهوات والمفطرات، صلةً بالقرآن العظيم، وقوفاً بين يديه قياماً وتهجداً، حجاً إلى بيته العظيم، تخطياً للعادات والمألوفات، إنفاقاً هنا وهناك في كل ما يرضي الخالق الكريم سبحانه. ولعل ذلك بعض مما عناه الحديث الصحيح [**للصائم فرحتان: فرحةٌ عند فطره، وفرحةٌ عند لقاء ربه**]. فالصائم يفرح يوم العيد بما أكرمه الله من الفطر والاستمتاع بأنعمه سبحانه، التي كان واجباً عليه الإمساك عنها سحابة النهار؛ بل من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس شهراً كاملاً. وفرحته الأخرى عند لقاء ربه لما يرى من كرامة الله لعباده المؤمنين الصادقين الصالحين، التي تتمثل في قوله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً**﴾، وفيما جاء في الحديث القدسي: [**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر**].

الحق أن هذا الأمر متسقٌ تمام الاتساق مع المنطلقات الإيمانية التي يتحرك منها المؤمن، فالمؤمن لا يتحرك عبثاً، ولا يقول ما يقول عبثاً، ولا يعمل ما يعمل عبثاً، إنه يعلم أن غايته هي الله سبحانه وتعالى، وأن عمله جزء من تحقيق عبودية الله في هذه الأرض، ولن ينفعه ذلك إلا إذا اقترنت عبادته

بالإخلاص لله، فهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾. ذلك بعض مدلول قوله صلوات الله وسلامه عليه: [**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى..**].

ووضوح هذا المعنى في عقول أئمة المسلمين وقلوبهم جعل إماماً كالبخاري ـ أجزل الله مثوبته وأسكنه الفردوس الأعلى من جنته ـ يبدأ كتابه الجامع الصحيح «صحيح البخاري» بهذا الحديث، وهو قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: [**إنما الأعمال بالنيات..**]. وقدمه على حديث الوحي، ذلك لأن العبادة والإخلاص فيها هو الأساس الذي يجب أن يكون قاعدة العمل عند المؤمن.

وهذا الاتساق الذي نتحدث عنه يجعلنا نقف على شيء من مدلولات تحريم الصيام في أول يوم من أيام عيد الفطر، فوجوب الصيام في رمضان شرعة، وتحريم الصيام يوم عيد الفطر شرعة. إن الذي أوجب هناك هو الذي أوجب هنا، المصدر واحد، والشريعة واحدة، ولذلك قرن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكر الله تعالى بما يكون من مظاهر الفطر فقال: [**أيام العيد أيام أكل وشرب وذكر الله**].

وفي شأن صدقة الفطر أمر بإغناء الفقراء في يوم العيد فقال: [**اغنوهم عن المسألة في هذا اليوم**].

وهكذا يريد الإسلام من أفراده أن يكونوا على صحو دائم، وعلى مراقبة تامة لله عز وجل، ما كان في فطر وما كان في صوم، ما كان في سراء وما كان في ضراء، وما دام المؤمن يتقلَّب دائماً في فضل الله عز وجل وإحسانه، فهو إذا فرح فرح بفضل الله، وإذا غضب غضب لله، مسرّته إنما

تكون بحسناته وما قدّم من عمل دائم مخلص، ومساءته إنما تكون بما تجترح يده من مخالفة لأوامر الله عز وجل، أو وقوع في شيء من منهياته. لذا فهو يحرص كل الحرص على أن لا يراه الله حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره.

[**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كلّه له خير، إن أصابته سراء شكر، فكان ذلك خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان ذلك خيراً له**].

وما أحسبنا نبعد النجعة إن قلنا: إن هذا من خصائص هذه الأمة.. التي تعبد الله تعالى صيامًا وصلاة، وتعبده زكاة وحجاً، وجهاداً، وتعبده فرحًا وطمأنينةً، واستمتاعًا بنعمه وطيباته، ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾.

وذلك الذي نقوله عن هذه الخاصية العظيمة: هو فارق ما بينها وبين أولئك الذين يجعلون من أيام العيد أيام لهو لا تفارقه المعصية، وعبث يقوم على المخالفات، واستهتارٍ لا يقف عند حدٍّ من حدود الدِّين أو الخُلقُ.

إننا ونحن نقرر هذه الحقيقة، نستشعر ما مَنَّ الله به على الجماعة المسلمة، حين رسم لها معالم الخير، وسلك بها طريق الجادّة، وجعل متقلَّبها ومثواها في مرضاته، وعملِ كل ما مِنْ شأنه أن يعود على الفرد والجماعة؛ بل والأمة بالخير العميم.

وذلك في واقع الأمر يتناسب كل التناسب مع الأمانة التي حملها الإنسان، والرسالة التي أعدت لها هذه الأمة يوم تأذن الله فخاطب المؤمنين وحياً إلى نبيه محمد بن عبدالله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾.

ولعل في ذلك ما يهدي إلى ما كان من حرص النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ على خروج المسلمين إلى صلاة العيد، حتى النساء اللاتي يقعدهن العُذْر عن الصلاة. فقد ثبت في الصحيح عن أم عطية ـ رضي الله عنها ـ قالت: أمرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن نُخرجَهنَّ في الفطر والأضحى، العواتق والحيَّض وذوات الخدور، فأما الحيَّض فيعتزلْنَ الصلاة ـ وفي لفظ: المصلَّى ـ ويشهدْنَ الخيرَ ودعوةَ المسلمين. قلت: يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب، قال: [**لتُلْبسها أختها من جلبابها**].

والآن: هل عليَّ من بأس لو خطوت خطوة أخرى؛ لأنظر إلى شرعة العيد من وجه آخر ـ وما أكثر حكمَ الله فيما يشرع لعباده! أننا ونحن نتحدث عن العيد لبنة كريمة في كيان المسلم من حيث كونُهُ في أعقاب العبادة، وأن المؤمن يفرح بفضل الله عز وجل فيما وفَّقه للقيام بما افترض عليه، وأداء حقه فيما أوجب. ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا**﴾.

إننا ونحن نتحدث عن العيد من هذا الوجه لا ننسى ما تتسم به عبادة الصوم التي سبقت العيد، من وحدة الشعور بين أبناء الأمة قاطبة؛ فالكل ـ إلا مَنْ حُرم ـ يُمسكون حيث يجب الإمساك، ويُفطرون حيث يُشرع الإفطار، على تنائي ديارهم وتباعد أمصارهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم؛ امتثالاً لأمر الله ﴿**فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾ وكلمة ﴿**مِنكُمُ**﴾ تحمل الخطاب لجميع المكلَّفين في الأمة دون تمييز أو تفريق، والحكم باق حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها. وعدّة الشهر الذي يصومون منوطةٌ بما دلَّ عليه قول

الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: [**صوموا لرؤيته** ـ يعني هلال رمضان ـ **وأفطروا لرؤيته** ـ يعني هلال شوال ـ].

وحدة الشعور هذه في حال الصيام ينبغي أن تكون هي نفسها وحدة شعورية أيام الفطر.

ولعمري إن هذه الوحدة الشعورية التي تبدو هنا سمةً من سمات التشريع، وثمرةً من ثمراته بآن واحد: يجب أن تمتد لتعمل عملها في حياة الأمة، سلاحاً ماضياً في قضاياها الكبرى؛ كفاء ما تلقيه الأيام على طريقها من معضلات وعقبات.

لقد خاض المسلمون في الماضي معركة الفرقان التي أرست للإنسانية قواعد كرامتها وهم صائمون، وخاضوا معركة الفتح حيث حرروا بيت الله والأرض من حوله من أدران الوثنية، ومكّنوا لراية التوحيد أن ترتفع وهم صائمون.

وكم كان في ذلك من إنقاذ للمستضعفين، ونجدة لأولئك الذي غلبهم أهل الشرك على أمرهم، حتى باتت معركة الفرقان (بدر) وغزوة «الفتح» وما كان بينهما أو لحقهما أصدق عنوان على طريق الإنسانية لتحقيق كرامة الإنسان، وتحريره من عبودية العباد، وظلم الطغاة.

وكان من ذلك حراسة للمبدأ الذي أعلنه القرآن ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾.

فهلا تكون وحدة الشعور هذه على صعيد الأمة حلقةً تصل ما انقطع، وتردُّ ما ضاع، وتُذكي ما خبا من نار العزيمة وحب الموت في سبيل الله! إنهما شعبتان لا بد من إعطاء كلٍّ منهما قدرها في القول والعمل. أن نذكر اقتران العبادة بفضل الله، وأن نذكر اقتران أعز معاركنا بالصيام قبل العيد إلى قمة لا ينالها إلا أولئك الفتية الذي آمنوا بربهم وزادهم هدى، وكانوا على وعيٍ لهذا التكامل المطلق في شريعة السماء.

أترانا نذكر ـ ونحن في أيام العيد ـ إخواناً لنا يقعد لهم العدو كلَّ مرصد، ويسومهم ألوان العسف والتنكيل؟ أترانا نذكر أيَّ هدايا يقدمها العدو الماكر كل حين لأولئك الذين صاموا تحت سلطانه، وأفطروا تحت قهره وغدره، يأكل خيراتهم ويصليهم سوء العذاب، يرتع على أرضهم، ويسرح ويمرح في ديارهم ومرابع صباهم، ويُهين في شهر القرآن قرآنهم، ويَحُول في شهر العبادة بينهم وبين عبادتهم ومساجدهم، تلك المساجد التي ينالها ما ينالها من رجس الكفر ودنس الكافرين الصهاينة صباح مساء؟

أترانا عندما ننظر إلى الأرض هنا، نذكر الأرض هناك، وعندما ندخل مساجدنا هنا، نرنو إلى الأقصى والخليل وسائر مساجدنا هناك؟ أترانا نقف عند تلك الحقيقة الكبرى: [**مَنْ لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**] نصيخ السمع ونفتح القلوب، ونتجافى عن الحطام وحب الحياة؛ لندرك أن الشعور الصادق بوحدة الأمة في أفراحها وأتراحها وما ينتظرها من مصير هو آية الإيمان، وصدق الدينونة للخالق القادر القاهر؟ والعكس بالعكس.

ألا إن الإيمان الذي حرَّك الدمَ ليعمل عمله عبر تاريخنا الطويل قادرٌ أن يقفنا اليوم حيث تقضي مصلحة الأمة وأخلاق الرجال.

ولن يكون العيد عيداً بمعناه الحقيقي حتى نكون في مرضاة الله تعالى؛ تحريراً لأرضنا، وانقاذاً لمقدساتنا، وأخذاً بيد أخواننا المغلوبين على أمرهم هناك.

وعلى هذه الأمة أن تذكر دائماً، أنَّ تقوى الله التي جُعلت غاية الصيام: كما تُطلب في الفرد إخلاصاً وصلة بالله عز وجل، ووقوفاً عند الذي شرع وأَحْكم، كذلك ينبغي أن تتحقق على صعيد الأمة، وحدة شعور، وإحساساً بالمسؤولية، ووعياً صادقاً للذي يدور على أرضنا وفيما حولنا.

وأن نذكر كذلك، أن العيد ليس فرحة فرد وكفى، ولكنه فرحة الجماعة فيما وراء ذلك، والفرد المبتور عن أمته بشعوره وإحساسه بالمسؤولية، فردٌ غريب عن فطرة الإسلام وكمال شريعة الإسلام.

ألا وإن الأمة مدعوةٌ اليوم أكثر من أي وقت مضى، أن تفتح البصيرة على الذي يرى واضحاً من الارتباط بين العبادة والفرح بفضل الله، وبين ذلك جميعاً مع وحدة الأمة في صادق الشعور، والإحساس بالأخوَّة ووحدة المنقلب والمصير.

صحيح أنها طريق شائكةٌ محفوفةٌ بالمتاعب، حافلةٌ بالمعوقات، ولكنها هي وحدها طريق الكرامة وكسب مرضاة الله عز وجل، فإذا تذكَّر المسلم أن الله أكبر من كل كبير، وأن العَقَبة مهما كانت كؤوداً سوداء فالاستعانة بالله ـ

مع الإعداد الصحيح ـ تذللها وتجعلها كلمة للتاريخ، استطاع أن يفعل الكثير وأن يحقق الكثير.

هذا من حِكَم شرعة التكبير في العيد، الذي طُلب حتى في صلاته وخطبته، حيث يُكَبِّر الخطيب ـ عند كثير من الأئمة ـ تسعاً في الخطبة الأولى وسبعاً في الخطبة الثانية، وفي الصلاة يُكَبِّر المصلي سبعاً في الركعة الأولى وخمساً في الركعة الثانية. هذه الحكمة، التي ترفع المسلم عن أوضار الطين، وتأخذ بيده إلى القمة مخلفاً وراءه أولئك الذين تستعبدهم غريزة حب الحياة، أو شهوة الدنيا، وزينة المال والولد.

ففي ساعات الفرح حيث عيد الفطر أو عيد الأضحى، تجد التوكيد المتميز لهذه الشرعة العظيمة؛ حمداً لله وشكراً على ما كان من الهداية ونعمة التوفيق ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وتنزيهاً لله عما يفتري المفترون ويتأله المتألهون، وتذكيراً للمسلم بأن لا تلهيه الفرحة عن الواجب، وأنه يجب أن يكون في مرضاة الله على كل حال.

فإذا تمكَّنتْ عظمة الله من قلبه كان قادراً مستعلياً على الحطام والمعوقات، سواء أكانت من نفسه، أم كانت من العدو. وما أكثر المعوقات من داخل النفس حيث حبُّ الدنيا والحرص على البقاء، وما أكثرها من العدو حيث القوة الظاهرة، والحرب النفسية، وإدخال الوهم واليأس إلى النفوس كالذي نرى في مساعدة الاستعمار للصهاينة من مختلف الأسلحة المادية وغيرها.

يا أيام العيد . . نريدك أياماً لنا جمعياً؛ لأهلينا، لإخواننا، على أرضنا الفسيحة الطاهرة هنا وهناك . . ويا فرحة العيد . . نريدك على قسمات أطفالنا جميعاً . . على وجوه السالكين دروب الخير، هازئين بتآمر اللؤماء الأقوياء .

يا ساعات الصباح، ونحن نرفع أصواتنا بالتكبير، نريدك ساعات تمسح عن أرضنا دنس يهود . . وعن مقدساتنا ما كان من رجس يهود . .

اللهم إنا نسألك وأنت الذي قلت بعد آيات الصيام: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾، ساعةً من ساعات بدر والفتح وعين جالوت، ويوماً من أيام القادسية واليرموك، اللهم إن أهل الباطل قد تظاهروا على حقنا، فاشدد بقوتك أزرنا، وكلِّل هامنا برايات نصرك، اللهم أنزل بهؤلاء الأعداء غضبك، وأحلل عليهم عذابك ونقمتك، اللهم رب السماء وما أظلت، والأرض وما أقلت، أنزل السكينة في قلوبنا، وأيِّدنا بما أيَّدت به جندك الصابرين الصادقين، حتى نفوز برضاك، وحتى تكون الغلبة لنا في يوم لابد واقع بإذن الله. ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

الفِرْيَةُ الخادعة (*)

الذين يرقبون سير الأحداث التي تلف حياة هذه الأمة من قرون يجدون حرص الأعداء دائماً على أن يرافق التحول عن مواقع السلطة والحكم، تحول عن مواقع الفكر والتصور الصحيح للدعوة التي تحملها الأمة، والتي هي رمز حياتها وعنوان الحِقَب الذهبية لتاريخها الأصيل المعطاء. فتهلهل الحكم، وذهاب الخلافة، والتجزئة القاتلة، وانفصام العرى، وما استتبع ذلك على الخط المهلهل الذي نعيش بعض ظلاله اليوم فيما يدبِّر الأعداء من مكائد وما يصنعون من أحابيل، كل ذلك يرافقه دائماً محاولة أن تضع الأمة بينها وبين الحقائق الأولية في وجودها وكيانها حجاباً مغلفاً بالكثير من البريق الخادع والزيف المصنوع الذي يخفي كثيراً من الافتراء والتضليل.

وأقول: «أن تضع الأمة» لأن هذه خطورة الثقافة المنحرفة التي يضع برامجها عقل يخطط للخراب والدمار، فالمراد عند هؤلاء المدبرين أن تقول الأمة ـ نفسها ـ كلمة السوء في تاريخها ومعتقدها، وأن تحكم الحكم الجائر على مبادئها وأسس فكرها في الحياة.

تقول وتحكم، والعدو الماكر من وراء ما تقول وما تحكم، ويبدو بثوب الحَمَل، كأنه ما صنع أحبولة ولا دبّر مكيدة.. وكثيراً ما تبدأ القضية عند واحد من أبناء الأمة بمرحلة «هل هذا صحيح»؟؟ ثم يتبعها: قال فلان:

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثاني، السنة العاشرة، ربيع الثاني ١٣٨٩هـ، تموز ١٩٦٩م.

ـ وهو عدو فكري طبعاً ـ كذا وهو الحق . . وينتهي الأمر بأن يقول : رأيي كذا والأمر الفلاني حكمه كيت وكيت، يردد ما قاله العدو الفاجر الماكر، وينسبه إلى نفسه رأياً ذاتياً، فهو ليس ـ على زعمه ـ طفلاً يلقى إليه ما يراد من التقاليد البالية والموروثات العتيقة، ولكنه إنسان مفكِّر شب عن الطوق، فهو مُطلٌّ على العالم، بصير بشؤون المدِّ الحضاري، تنعكس على ذهنه الوقاد طاقات الصعود إلى القمر، وليس كأجداده الذين ولَّوا ظهورهم للحياة، ولما تشرق عليهم تلك الشمس التي أشرقت على ذهنه المتفتح الوضّاء.

كانت هذه كلمات لا مندوحة عن تقديمها بين يدي واحد من سبل الشيطان التي تفترى، وقد زينها شياطين الإنس للكثير تذليلاً للفرار من ساحة العمل وتحمل تبعات دعوة الإسلام، ذلك السبيل هو زعم أن الإسلام منوط بما يسمى «طبقة رجال الدين»، أو ما يرادف ذلك، وكل ما يمتُّ إليه بصلة، ثم اعتبار ذلك مقدمة صحيحة، كل النتائج التي تنتج عنها صحيحة أيضاً.

ولسنا بسبيل أن ندير القول في ظل نظرات فلسفية إلى الموضوع، فذلك أمر موطنه غير هذه الصحفات القليلة المحدودة، ولكنها ملامح نرجو أن تشدَّ أزر العامل، وتسهم في إيقاظ الغافل.

فعندما خاطب الإسلام فطرة الإنسان، وواجه عقله، بوضوح لا يشوبه التباس، وإعلان لا يعرف الغموض: كان معنى ذلك أن نوعاً من التحمُّل لذلك الخطاب لابد أن يعمل في نفس الفرد ـ من ذكر وأنثى ـ عمله، لتكون

هنالك حراسة أمينة للإيمان الذي ملأ القلب، والقناعة التي استسلم لها العقل.

ولما كان خطاب الإسلام يتجاوز إرواء العطش الروحي، إلى ساحة العمل والسلوك؛ لأنه يحمل ـ فيما يحمل ـ عناصر المواجهة العملية لكل شؤون الحياة، باعتباره رسالة الإنسان الذي خوِّل الخلافة في هذه الأرض. أقول: لما كان خطاب الإسلام كذلك: كان من الطبيعي أن ينتفي عن الإسلام ـ في فكره ومنهج سلوكه والتصور الذي رسمه لبنيه ـ وجود طبقة معينة تختص بانتسابها إلى الدين، وتتميز بأنها صاحبة الحق في شؤونه وكل ما يتعلق به، وتكون هي المصدر الذي ينوب مناب النصوص ومعالم الهداية.. الأمر الذي يترتب عليه نتائج هي في غاية الخطورة بالنسبة للفرد والجماعة، وتحقيق ما من شأنه تصحيح نسبة الأمة إلى دينها اعتقاداً وفكراً وسلوكاً والتزاماً على كل صعيد.

فالحاكمية في الإسلام لله، وطبقة رجال الدين هي الدين نفسه، في مبادئه ونظمه، ومنهجه الذي وضعه للحياة، كما ترى ذلك العين المبصرة، والملكة الواعية في الكتاب والسنة وبقية مصادر الشريعة. وخطاب التكليف للذكر والأنثى قائم ما دامت السماوات والأرض. وما كان قدراً مشتركاً بين المكلَّفين جميعاً، تراه ميسَّراً مذللاً. بحكمة الحكيم سبحانه وإرادته التي لا تحدُّها حدود ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

ولكن هنالك العلماء الذين هم ورثة الأنبياء في حمل الشريعة وتبليغها للناس، يدلون على الطريق، ويعلمون أمور الدين، وهم مدعوون لأن

يكونوا قدوة في العمل بما يعلمون، والصدع بالحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، دون مهاودة أو تقصير ضمن الحدود التي شرعها الإسلام، ولهم في ذلك ما لهم من المنزلة في شرعته المباركة.

وهؤلاء العلماء العاملون المخلصون هم الذين عَدَّلهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم كشف عن مهامهم العظيمة بقوله: [**يحمل هذا العلم من كل خَلَف عدوله؛ ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**].

وإذا انحرفوا عن ذلك، فكتموا العلم، أو تخالف عملهم مع ما يُعلِّمونه للناس، أو باعوا الدين بالدنيا، فأسلموا أنفسهم للشيطان، وسخَّروا علمهم للغرض العاجل، والأرب العفن، فتلك هي الطامَّة الكبرى!!

وفي الكتاب والسنة ما يكشف عن شديد الهول الذي سيلقاه هؤلاء في الآخرة ـ فضلاً عن مغبة الدنيا ـ يوم يختم على الأفواه، وتشهد الأيدي والألسنة والأرجل، وتندلق أقتاب بطن ذلك الذي سخَّر الدين للدنيا، وتراه يدور في العذاب كما يدور حمار الرحى، والعياذ بالله؛ لما أنه كان يأمر بالمعروف ولا يأتيه، وينهى عن المنكر ويأتيه، واستخدم مبادئ الخير في سبيل التمكين للانحراف الأثيم والظلم البغيض!.

ولعل في تجلية هذه النقطة وتذكير المسلمين بأهميتها ما ينبه إلى العديد من ألوان الخطورة في الموضوع.

١ - يأتي في مقدمة ذلك ما ينبني على توهم وجود طبقة رجال دين من إبعاد للدين عن الحياة؛ لأنه يتمثل في هؤلاء الذين لا يعرفون من

الاختصاص إلا الدين، وهو من التهويمات الروحية التي لا علاقة لها بشؤون الحياة، تماماً كالذي كان يقال في أوروبا قبل عصر النهضة عندهم، يوم كانت أوروبا تئن تحت وطأة استخدام الدين وسيلة لتثبيت دعائم الظلم والظالمين، وترسيخ جذور الجهالة في الأرض؛ كيما يتسنى لطبقة الحكام وطبقة رجال الدين الاستمرار في التحكم برقاب تلك القطعان التي تدعى بشراً يومذاك.

أما نحن: فما شأننا وهذا، فالإسلام ليس من هذا الباب في قليل ولا كثير، وما أحسب أن عاقلاً منصفاً يرضى لنفسه أن يحمل الإسلام تبعة ما حصل في أوروبا خلال القرون الوسطى، ولكن أدعياء السوء يريدون ذلك، والحديث معهم يطول، وكثيراً ما يتجاهلون أن الإسلام عقيدة وشريعة ونظام، وأنه منهج حياة يتسم بالواقعية والإنسانية والشمول، وأنه طريق سعادة الدنيا والآخرة، وأن الحضارة الإنسانية مدينة له في الكثير الكثير، وشواهد ذلك ماثلة للعيان، وتلك حقائق لا يغير هويتها ضعفنا اليوم.

٢- وفي لون آخر من ألوان الخطورة في تلك الفرية الخادعة يواجهنا ما يكون من الإساءة إلى الدين نفسه؛ بتحميله كل أخطاء من يزعمون أو يزعم لهم أنهم رجال الدين، والأوصياء على الإسلام، فانحرافهم - عند هؤلاء - ضعف في مباءئ الإسلام، وجهلهم دليل أن الإسلام يحارب العلم، وضيق الأفق عند واحد منهم، وانغلاق - وإن شئت: انسداد - أذهانهم دليل أن

الإسلام لا يقيم للعقل وزناً ولا يحترم الفكر، وحدِّث ما شئت عن مثل هذه الدواهي التي كانت واحداً من الأسباب التي جعلت من الإسلام في أذهان أولئك البعيدين عن حقائقه وخصائص التصور فيه: أناساً يجعلون أصابعهم في آذانهم، إذا شئت أن تسمعهم دعوة الحق كما أرادها الله، وكما نزلت وحياً على محمد - صلى الله عليه وسلم - لما أنهم لا يعرفون في الإسلام إلا تلك الصورة المنحرفة الشوهاء، صورة تحركات تلك الفئة من الناس، وإن كانوا يظلمونهم في كثير من الأحيان.

وهذا لا يعني اعطاءهم العذر في بعدهم عن الإسلام؛ فإن عليهم أن يدرسوا ويتفهموا؛ ليتعرفوا على حقائق الإسلام من منابعه الخيرة ومصادره، ولكن إثم الذين اسهموا في إبعادهم عن الإسلام - إن حصل هذا - واقع لا محالة.

٣- وإذا تجاوزنا ذلك - وكم للافتراء الخادع من ضحايا - وقعنا على ما يسوغه كثير من الناس لأنفسهم من الابتعاد عن الدين، تحت عنوان أنهم ليسوا «رجال دين». والمطالبون بالعمل بالدين إنما هم رجال الدين وكفى، وقد أشرنا إلى هذه النقطة في صدد هذا الحديث ولعلها هي التي أثارت الموضوع في ذهن كاتب هذه السطور.

إن هذا الأمر ظاهرة سوء عند بعض الناس في المجتمع الإسلامي؛ لما في ذلك من إبعاد للأمة عما به كانت خير أمة أخرجت للناس، وعزلها عزلاً تاماً عن مصادر الحركة الفاعلة المؤثرة النابعة من الإسلام. وهي ليست دليل

جهل فحسب، ولكنها دليل حب المغنم، والبعد عما قد يتوهم أنه مغرم، فنحن نفاخر بأن في تاريخنا الإسلامي من الشوامخ ما يعز نظيره في تاريخ أي أمة من الأمم، ونعتز بأن الإسلام قد حقق على مدى العصور انتصارات فكرية وحضارية، لا بد أن تعود إليها الإنسانية بعد رحلتها الشاقة الطويلة، وتجاربها المريرة التي تنتهي كل واحدة منها بنكسة هي أشد وأنكى من سابقتها التي وقعت بالأمس.

نقول ذلك كله - وهو حق لا مرية فيه - معتزين مفاخرين، حتى إذا جاء دور العمل افترينا على الإسلام فرية الطبقية؛ طلباً للعافية، وحباً للسلامة.

إن مما يذوب له القلب كمداً، أن تكون تلك الدواهي والكوارث التي تعاني منها أمتنا اليوم هي التي تولد عند الكثيرين نوعاً من الرغبة في الهروب من التبعة والمسؤلية، خصوصاً في أمور الدين، فهم يريدون أن يجعلوا في الإسلام ما يسمى «رجال الدين»، لا لأنهم يعتقدون أن الإسلام متسع لوجودها، ولكن لأن ذلك يعفيهم - ولو من الناحية النفسية - من تحمل الأمانة في دعوة الإسلام ونظمه ومبادئه.

ولكن.. ما هكذا يا سعد تورد الإبل.. وما كا هذا - يوماً من الأيام - صنيع الأوفياء!!. فعند الاعتزاز والمفاخرة بالماضي نقول ونشتد في القول.. حتى إذا جاء دور العمل: كان النكوص على الأعقاب، وانتحال الأعذار من طريق الافتراء.

والآن . . أليس هذا الذي أشرنا إليه من خلال هذه الكلمات عنوان أذى في ألوانه الثلاثة، تتكامل حلقاته من هنا وهناك؟!

إن الذي لا يسع مؤمناً صادقاً جهله . . أن الإسلام - كما أسلفنا - حين خاطب الإنسان بالتكليف، وحمَّل الفرد والجماعة شرعة هي خاتمة الشرائع - دون أن يخص فئة دون أخرى - جعل المسؤولية ركناً بارزاً في كيان المسلم على مدى الزمن نتيجة طبيعية لما حمل من أمانة الإسلام، فليس له اختيار في أن يغير أو يبدل، وتحريف الكلم عن مواضعه ليس من خلائق هذه الأمة ولكنه كان وما يزال من خلائق يهود؛ الذين نعى عليهم القرآن ذلك في كثير من المواطن.

وفيما وراء ذلك: ليس للأمة اختيار - على صعيد الفرد والجماعة - أن تقول فيما قضى الله ورسوله: أريد أو لا أريد، لأن المسلم - بوصفه مسلماً - لا بد أن يتحمل عبء الدعوة في وجوده وكيانه فكراً وسلوكاً وعملاً، فكل مسلم - على هذا المعنى - رجل دين حين يحقق ما أمر الله ويلتزم شرعته في أي ميدان من ميادين اختصاصه، وعلى أي نفر أقامه الله عليه وراء القدر المشترك بين أفراد الأمة وهو ما به يكون المسلم مسلماً.

ولقد نعطي مقاتلنا للعدو حين تنطلي علينا الحيلة، ونقع في شرك البريق الخادع، علماً بأن العدو يريد أن يظل الإسلام بعيداً عن الحياة؛ كيلا تتصل الأمة بالعلم الذي يصلها بالحركة، والمعرفة التي تسهم معها في البناء الحضاري؛ وكي تنأى عن ساحات الجهاد. . تلكم الشرعة التي يعتبرها

الإسلام في مقدمة الدعائم التي تمكن للأمة ومبادئها في الأرض، وتحرر فكرها وأرضها من الغاصبين ومهرة اللصوص. ناهيك عن انعتاقها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما في الذورة من صيانة المجتمع عن الفوضى والعبث والتخلخل.

وليس من المعاد المكرور أن أعداءنا ـ وكثير منهم على صلة جيدة بالتاريخ ـ يريدون أن يظل الإسلام بلا أبناء بررة صادقين يتجاوزون أن يكون الدين مجرد نفحات روحية تروي ظمأ قريباً، أو ترفه عن نفس متعبة بهموم الحياة.

وأن أولئك الأعداء يودون ـ لو يتاح لهم ـ إلصاق الدين بفئة معينة من الناس فقط؛ كيما تكون من وراء ذلك ثمرات من الخبث والتضليل ليس أهونها اعتبار الدين أمراً منفصلاً عن الحياة، وأنه ـ جملة وتفصيلاً ـ سلوك تلك المجموعة من الناس، معرفةً أو جهالةً، استقامةً أو انحرافاً، قدرةً على تطبيق الإسلام أو ضعفاً عن ذلك.

أما الأمة بمجموعها: فلا علاقة تربطها بذلك. وشتان بين هذه الصورة وبين أن تظل النظرة إلى الإسلام ـ كما هو ـ نظرة إلى مبادىء تشكل وحدة متكاملة خوطب بها الإنسان دون تفريق، وأنه كيان الأمة ووجودها، ومنبع الأصالة والقوة في حياتها.

ألا إن هذا كله ـ وغيره كثير ـ مدعاةٌ لمزيد من الشعور بجلال التبعة وكرامة الأمانة، وامتحان لقدرة المسلم على الاستمساك رغباً ورهباً بحقائق دينه

ومُثُله، وتجاوز كل ما من شأنه أن يكون افتراءً وخداعاً، والثبات على الطريق الرائدة بقلب المؤمن ووعي المفكِّر وساعد المجاهد.

وأقول: رغباً ورهباً، مذكراً بما أسلفت من أن وفاء الإيمان يقتضينا ذلك، وأن من غير المقبول أن يظل الأمر في دائرة المفاخرة والاعتزاز، لأن الجرثومة المشار إليه قد تنسف المفاخرة والاعتزاز في يوم من الأيام.

وليس عسيراً عليك حين يدعوك داعي العمل أن تذكر أبداً.. وعلى المدى.. أن نداء بلال بـ «أحَد أحَد» - والأصفادُ في قدميه والحجر الثقيل على صدره، وخنجر المشرك الظالم مشرع فوق رأسه يوم كانت الفئة المؤمنة القليلة مضطهدة معذبة - كان أغلى من أصوات الانتصار تحت رايات الفتوح.. ورجال بدر في التاريخ لما أنهم كانوا طليعة القافلة.. كان لهم ما كان بالنسبة لمن جاؤوا وقد مُهِّد السبيل.

ولم يكن هملاً في تاريخنا أن يتوسّد الترب كثيرٌ من الشهداء الذين لم يبصروا الإسلام يقود المجتمع، ولا رأوا جيوش الإسلام تفتح الدنيا هنا وهناك، وما نبتغي من ذلك - واللهم غفراً - تنقيصاً من أقدارهم فالغبار الذي ينعقد فوق رأس المجاهد في سبيل الله نور يشرق به التاريخ. ولكنها الحقيقة التي يفرضها الإسلام في واقعيته ونظرته إلى طبائع الأشياء. والأمة التي هي على إرث من حقائق الإسلام مدعوة اليوم لأن تعي.. وتعي.. كيما تعود إليها - بعون الله وتأييده - مفاتيح التاريخ من جديد.